ترجمة الإمام الشافعي رحمه الله

ملخص من محاضرات

للشيخ مشاري الشثري

إعداد

ا/ عاصم فتح الله

الإمام الشافعي

ولد الشافعي سنة ١٥٠هـ في مكان ما بغزة وقيل في عسقلان وقيل في غير ذلك ثم بعد سنتين ١٥٢هـ انتقلت به أمه إلى مكة ثم بعد ذلك لما بلغ ثلاث عشرة سنة انتقل إلى الإمام مالك رضي الله عنه في المدينة ومكث عنده إلى أن توفي سنة ١٧٩هـ. وفي خلال هذه الفترة الطويلة كان الشافعي يتردد من حين لآخر إلى مكة وأيضاً هنالك طرده والي ... إلى أن يذهب إلى اليمن مرة وإلى نجران مرة ثم حدث أن اتهمه الشيعة بنجران ومن ثم حمل منها إلى العراق وكانت أول قدماته للعراق سنة ١٨٤هـ وفيها التقى محمد بن الحسن ومكث سنتين أو ثلاث سنوات. ثم عاد إلى مكة ثم قدم إلى العراق مرة أخرى سنة ١٩٥هـ ومكث فيها سنتين تقريباً ثم عاد إلى مكة ثم عاد إليها ثالثة إلى بغداد التقى فيها أحمد بن حنبل رحمه الله بن حنبل وكان قد لقيه قبل ذلك في مكة وهذه القدمة الثالثة سنة ١٩٨هـ وقيل ١٩٩ مكث فيها أشهراً ثم انتهى به المطاف إلى أنه انتقل إلى مصر سنة ١٩٩هـ أو سنة ٢٠٠هـ على اختلاف الروايات ومكث فيها إلى أنه توفي في مصر سنة ٢٠٤هـ ودفن في القرافة رحمه الله سبحانه وتعالى. أكثر من سبعين مصنفاً ما بين مطبوع ومخطوط ترجمت للشافعي والشافعي وجه جديد من الفقه ليس امتداداً للمدارس قبله كانت قبله المدرسة العراقية والمدرسة المدنية أخذ عن هؤلاء وأخذ عن هؤلاء مزج بينهما فخرج مشروع جامعة الشافعي أثر في هذه المدارس

وأراد أن يكون له مدرسة جديدة يمثل وجهاً جديداً ويدشن مرحلة جديدة ثم أتى بعده الإمام أحمد فكان شبيه بامتداد مدرسة الشافعي لذلك كان الإمام أحمد صاحب فرصة عظيمة وعبقرية فرصة لا يعرفها معارف فرصة استفادة للسنة والآثار

مقومات ساعدت على تشكيل وتكوين عبقرية الشافعي.

١- النبوغ المبكر:

النبوغ المبكر كان أمراً ظاهراً عند كل من ترجم للشافعي وكلهم يدلل على ذلك بشهادات كثيرة. شيخه في مكة مسلم بن خالد الزنجي قال للشافعي آن لك أن تفتي وقد كانت سن الشافعي دون العشرين، والحميدي يقول هذا عن سائر شيوخه في مكة، يقول الحميدي كان مسلم بن خالد الزنجي وسعيد بن سالم القداح وسفيان بن عيينة وعبد المجيد بن عبد العزيز وسائر شيوخ الشافعي في مكة يعرفون الشافعي ويقربونه بالتميز من صغره في العقل والذكاء والفطنة ويقولون لم نر مثله أبداً.

لما ذهب إلى مالك وقد كان عمره ثلاث عشرة سنة، وعندما أراد أن يقرأ عليه الموطأ قال له مالك التمس من يقرأ لك فأبى الشافعي إلا أن يكون هو القارئ، فأذن له مالك فلما قرأ تعجب مالك من حسن قراءته ومالك رجل مهيب. وكان الشافعي يقول كنت أصفح الصفحة عنده صفحاً رفيقاً من شدة هيبة مالك فكان الشافعي كان يتوقف من هيبة مالك فقال يا فتى زد، وعلل ذلك الإمام أحمد فقال لأنه كان صبياً، وكان مالك يلحظ أمارات النبوغ والتميز المبكر عند الشافعي لما بلغ الشافعي من قراءته لكتاب السير دهشت لذلك مالك

لقد أدرك أبا ربيعة ... ومن حجته ذكائه ... لأبي حنيفة
قال مالك. تفقه تعلم ... عنده المقداد ذاك ... أمارات
وما علم أحد أن يكون مفتياً قابل الإمام فقال تفقه تعلم: إنه ابن سفيه
ما ليس لك من العلوم ما ليته الله تعالى لك.

فيقول الأصمعي صححت أشعار الهذليين على شاب من قريش

أيضاً من الشهادات على نبوغه المبكر أن عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله لما طلب
من الشافعي أن يصنف الرسالة كتب له رسالة طلب منه أن يجمع فيها ما يتعلق بحجة
الإجماع وقبول الأخبار ومعاني القرآن والناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة
فصنعها الشافعي وبعث بها إلى ابن مهدي برسالة بحارث النقال فلما رآها ابن
مهدي رحمه الله تعالى قال هذا كلام رجل مفهم، وكان الشافعي حينها شاباً.
بل قال ابن مهدي لقد أذهلني هذا ووجدته كلام رجل فقيه ناصح.
وكان ابن مهدي حينئذ إماماً وهو أكبر سناً ومن جمهور أئمته.

الشافعي فالجماعة كانت قد ذهبت إلى اليمن وتولى بالقضاء في الأقضية التي
حكم بها في اليمن ما زال الشافعية يقرأون بها فكان إذا أهل اليمن إذا أتاهم قاض وقضى بغير
ما قضى به الشافعي قالوا سنة الشافعي، سنة الشافعي ما يدلك على أن أقضيته
كان لها وقع في تلك البلد، هذه شهادات تدل على أن للشافعي نبوغاً مبكراً
والشافعي قد كان صغيراً أستاذاً أستاذين. فأنتم له قد حققه نبوغاً مبكراً
مع نبوغه في التدريس والتدوين من شأنه أن يجعل هذه الحرفة ماثلة متكاملة

المقالات واضحة المعالم حتى إنك لتحس الشافعي يفرض الحجة أن يكونوا بعيدين عن
له شأن وأي شأن ما قد كان له رضي الله تعالى عنه.

٣- ثالث هذه المقومات . القوة البيانية .

وهذه القوة مرتبطة بالقوة التي كشفت عند الشافعي للإدراك كما سبق
وقد كان الشافعي رضي الله عنه عالي البيان قويًا فيه من أجل المبادئ
مشرقة الموضوع ... واضحة . والقوة البيانية عند الشافعي كانت
ظاهرة في كتبه رحمه الله . فالعلماء يشهدون للشافعي في كتبه أنه كان رجلاً
فصيحًا لقول ابن هشام في كتاب الرسالة وجميع كتبه عنه

والجاحظ وهو من هو في معرفة بالعربية والأدب يقول: نظرت في كتب هؤلاء
النبغة الذين نبغوا في العلم أحسن تأليفًا من المطلبي كأن فاه ينظم درًا إلى در
لقول أبو منصور الأزهري : طالعت معظم كتبه وأمهات أصوله ومختلفة
على ذكائه وهو أحسن ما اشترطه علماء اللغة على تعبيرها، وكانت
ألفاظه رحمه الله تعالى عربية محضة ومن عجمة المولدين مصونة"

ومن الشهادات المعاصرة: الشيخ أحمد شاكر الذي أخرج لنا كتاب الرسالة
قال: الكتاب الرسالة بل كتب الشافعي أجمع كتب أدب ولغة وثقافة قبل أن
تكون كتب فقه وأصول وذلك أن الشافعي لم تهجنه عجمة ولم تدخل
على لسانه لكنة ولم يحفظ عليه خطأ أو لحنة.

٥٦

الفطاوي الأديب الكبير تقول عن لغات الإمام: "كنت أقرأ فيه الصفحات الكثيرة لا لمعرفة حكم الفقه، ولكن لا أستمتع بذلك البيان، وهذا شاهد من أديبنا تلقت الشافعي علما وهو ما ثبت تقرأ أي كتاب الرسالة ومن سائر كتبه كذلك الشافعي في سليقة العربي. والوصف الرائع ما يجعله شعراً يورده لسانك على أنه يبلغ مبلغ الشافعي في بيانه ويجعل للعلم في سليقة لذة.

مجالس الشافعي:

قال من شهد مجلس الشافعي كان يزيد له علمهم البيان، يقول يونس بن عبد الأعلى قال: "كانت ألفاظ الشافعي كأنها سكر من حلاوة رجال"

الإمام أحمد رحمه الله يستعمل قوة الشافعي البيانية للدعاية له وحتى يأتي بكثير من أهل الحديث إلى مجالسه.

الحميدي من أخص أصحاب سفيان بن عيينة وكان لا شغل له إلا طلب الحديث والإستكثار من رواياته حتى لقي الشافعي فصحبه وانتقل معه من مكة إلى مصر وصار من رواته والحميدي ما عرف الشافعي إلا من خلال الإمام أحمد. قال الإمام أحمد للحميدي هاهنا فتى من قريش له بيان ومعرفة.

ابن هشام صاحب البخاري قال: طالت مجالستنا محمد ابن إدريس الشافعي فما سمعت منه لحنة قط ولا كلمة غيرها أحسن منها.

والزعفراني عالم بصير باللغة وهو من رواة كتب الشافعي القديمة قال: "ما رأيت الشافعي لحن قط وكان يقرأ عليه من كل الشعر فيعرفه" وكان على دراية واسعة بأشعار العرب وأيامهم.

وهنالك رأي قوي حاضر بقوة وهو أن لغة الشافعي يحتج بها أو لا
.

والقدرة البيانية لا أثر لها في فقه شريعة الله عز وجل وعكس الناظر أن العلم من الإبانة عن علومه ومعارفه، ولكن من الناس عنده علم وعنده معرفة لكنه لا يملك من البيان ما يمكنه من إيصال كله على وجهه والإبانة عن محبته. وإنما الأثر مقرر من القدرة العقلية

والشافعي له تقريرات كثيرة متعلقة بلسان العربية والحسية وهذا كله لأنه رأى القدرة البيانية في الفقه ورأى أثرها في كلامه.

يقول الشافعي في مطلع الرسالة: "ومن جماع علم كتاب الله ثم عدد أمور أخ أولها قال: "العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب" "فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ويتلو به كتاب الله وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك"... إلخ كلامه.

فالقدرة البيانية لا أثر في قوة الفهم لنصوص الشريعة وهذا ما هو حاضر فيما نراه من فقه الشافعي وما نجده في أصله وتقريره لذلك في كلامه.

القدرة البيانية لا أثر لها إلا أنه عن العلم والمعرفة ولذلك كان من المفيد الكلام عن الشافعي حسن بيانه وقوته وكان ذلك جلياً في زيادة ثقة الشافعي بنفسه فكان لا يهاب أحداً إن ناظره وجادله. والعليم يطيع لسانه حيث أراد

أيضًا القوة في البيان مؤثرة ودليل على قوة العقل، فاللغة ليست مجرد وسيلة إبانة بل إنها وسيلة التصور، ومن هنا كانت علاقتها أخطر، إذ من قوة اللغة وقوة الفهم وقوة التصور والإدراك، والمرء يتوسل بها بقدر إشباع لغته من حيث القدرة والإبانة من جهة، وكذلك فيما يعرفه من جهة، ومن هنا كان العلم باللغة العربية وقوة البيان من سبيل المعرفة بشريعة الله، فما ذلك إلا لما كانت المعرفة البيانية من أثر في قوة العقل.

إذا نظرنا في كتب الشافعي نجد أن الشافعي يتوصل لذلك كما في كتاب الرسالة ونجد أن ذلك جاء في تفسيراته الفقهية وهو كثيرًا ما يستشهد على معاني الكلام التي تلوح له في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يعرفه من لسان العرب وما يعرفه من أشعارهم. كما أنه اطلع على الكثير مما جاء في أشعار العرب من حتى أنه نقض المحكوم، ليس بالرأي.

٢- القوة العقلية:

هي كالقوة البيانية في مدى حضورها عند من ترجم للإمام الشافعي.

قال الإمام أحمد لعبد الله بن الفضل قال: إن ما كان يعقل هذا الفتى أخاف أن لا نرى إلى يوم القيامة.

أبو عبيد القاسم بن سلام يقول: "ما رأيت رجلًا قط أعقل من الإمام الشافعي" يحيى بن أكثم القاضي يقول: "ما رأيت رجلًا أعقل من الشافعي كان كثير الدهاء"

سُئل إسحاق بن راهويه كيف وضع الشافعي هذه الكتب في هذا العمر؟ فقال: "عجّل الله له عقله لقلة عمره"

فلا شك أنها متفق على أن الشافعي تميز وتفوق بعلمه بالقوة العقلية الرهيبة، يقول "لو وزن عقل الشافعي بنصف أهل الأرض لرجحهم" ومثل هذه العبارة وردت عن يونس بن عبد الأعلى والمزني.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: "الفضل إما بالعلم النافع أو بالعمل الصالح"، والعلم له مبدأ وتمام، فالمبدأ هو قوة العقل الذي هو الحفظ والفهم، والتمام هو قوة المنطق الذي هو البيان والعبارة، ومن أراد أن ينال مقصداً أعلى في العلم فلا بد له من هذا المبدأ وذاك التمام:

وإذا نظرنا للشافعي قد بلغ مبلغاً عالياً في ما يتعلق بمبدأ العلم الذي هو قوة العقل وتمام العلم الذي هو قوة المنطق

كيف علم معاصروه والأئمة وكذلك التلاميذ برجاحة عقل الشافعي؟

نستطيع أن نقول من خلال ما يتعلق بقوة الإدراك للمعاني، لأنه نقل تشريع من خلال أنه صاحب جودة الاستنباط وجودة التحليل ودقة شريعة الله من خلال التصوير هذه للمسائل والأدلة فإنه استخرج خفايا المعاني وكنوز المعارف

أيضاً القوة العقلية تجعل صاحبها حريصاً على أنه لا يدع من العلم شاذة ولا فاذة إلا وقعّد القواعد فيها، فهو لا يمر بالعلم مروراً كراماً بل يأخذ كل ما له من تحقيق القول فيها، فيقدم آثاراً عقلية كما فعل الشافعي رحمه الله

قال الشافعي " من أراد أن يتكلم على ما يسمعه منه لئلا يضيع ويضيع العلم " فالعلم ما لعقل دقائق العلوم لا نسيان فلكن ناظرًا في العلم مالم يكن له من قوة العقل ما يمكنه من ذلك.

أخص خصائص القوة العقلية والتي تجعل من صاحبها عظيم الأثر والشافعي منه (التصرف في العلم) أي عقله أوسع من كله، إنه لديه مادة كلية كثيرة لكنه استطاع أن يطور هذه المادة ويرتبها وما ذلك إلا للعبقرية والقوة العقلية فعنده مادة محدودة لكن القوة عقله استطاع أن يوظف هذه المادة المحدودة فأخرج أشياء معرفية كثيرة) فإذا نظرنا للشافعي وجدنا عنده مادة واسعة من العلم ووجدنا عنده جانب من العقل، فكان حسن التصرف في العلم، أحسن التوظيف لهذه العلوم التي حازها في بناء شخصيته العلمية وهذا الذي مكنه من أن يكون له اشتغال وإبداع في العلم.

سبب هذه القوة العقلية أنه لا شك عنده استعداد فطري، وعنده ذكاء فطري والقوة البيانية من أعظم ما يعطي العقل قوة ومن أسباب قوته العقلية أيضا احتكاكه بمدارس مختلفة، والشافعي نفسه يقول " العقل التجربة " فهو احتك فعليا بمكة بعلماء الحديث وعلماء اللغة وبالعراق للرأي واحتك بعلماء أهل تلك البلدان وبهذه التجربة توسع رحب عقله وفضل على كثير من عقول أهل زمانه بل من بعده إلى زماننا هذا.

تابع ترجمة الإمام الشافعي رضي الله عنه

مقومات النبوغ والعبقرية للشافعي رضي الله عنه

٤- رابع هذه المقومات: القوة الحجاجية والجدلية.

فلا شك أن بيان الشافعي ولا شك أن عقله كان له من قوة الجدل وقوة الحجة ما جعل ذلك علامة ظاهرة بينة في شخصيته رحمه الله تعالى وكتبه كلها شاهدة على ذلك وبراهينه أقامها لبيان حجته، فهو لم يكن يترك المسائل إرسالاً وكان حريصاً بأن يربط كل فرع من فروعه بحجته ودليله ومن براهينه، مع أن أتباع مذاهبه أتباع مجمعه لم يقتنعوا بذلك بل كان يقول لهم أنه يثقل على الناس الصفحة في كل مسألة جزء حجج وبيان، وما يتعلق بالحجة وحضورها عند الشافعي وحضورها في حججه كانت ظاهرة بينة في كلامه رحمه الله تعالى.

ومن القصص اللطيفة أن الشافعي لما دخل مصر آخر عمره وكانت الصولة والجولة فيها للمالكية كما أن الصولة في العراق للحنفية ولما دخل الشافعي مصر كان هنالك علم من أعلام المالكية اسمه عبد الله بن عبد الحكم وهذا من المتقدمين في فقه مالك رحمه الله تعالى، لكنه لحظ أن الشافعي له من قوة الحجة ما يجعل المرء ينزاح قليلاً عما اشتهر به المذهب المستقر من هذه القدرة الحجاجية الجدلية فكان يوصي ابنه محمداً فيقول يا بني

إلزم هذا الرجل فإنه كثير الحجج ، فلازم محمد بن عبد الحكم مجالس الشافعي وحضرها فلقي هذا إنكار المالكية فكانوا يذهبون إلى والده يعاتبونه فكان والده يداريهم لكنه لم يصر عليه أن يحضر عند الشافعي حتى صار محمد من أفراد الشافعي وترك مالكيته وانطوى تحت لواء فقه الشافعي رحمه الله ومقصدها أرضاه من والده حاضراً عند الشافعي ولذلك قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: "ما علم الناس الحجج إلا الشافعي" والشافعي علم هؤلاء الحجاج ، وكان يورث الحجج في تلاميذه وأصحابه

ولذلك قال داود بن علي إمام أهل الظاهر: "من تعلم الشافعي بيانه صار محجاجاً" ، وهذه القوة التي كانت لدى الشافعي أثرت وأعطت كثيراً من نتاجه الفقهي ، فصار له من عبقرية العقول وعبقرية الفروع الفقهي ما فضل به على أئمة الإسلام ، فكانت كتبه كلها على هذا النحو ، من يتتبع الرسالة يجدها وإذا قارنته بغيره تجد أن المنقول عنهم في غالب الأمر مسائل أي نتائج أما مقدماتها فلست تعرفها كالمقدمات عند الشافعي ، أما الشافعي فتقرأ فقهه مشفوعاً بدلائله وبراهينه وحججه رحمه الله تعالى ؛ لذلك الذي يتخرج بكتب الشافعي يتخرج وهو على علم بمقدمات العلوم ونتائجها ، على علم بالمسائل وعلى علم بالدلائل ، ولذلك أصحابه من بعده كفاهم الشافعي مؤونة الاستدلال لأقواله لأنه قد حشا كتبه بذلك أما أصحاب المذاهب الأخرى فقد كان يشكل القول في الاستدلال لأن الذي نقل إليهم من أقوال أئمتهم

كان عارفاً بالتفسير من أمره عنه دائرة الأدلة بحيث أنه لم يتكلم ظاهره شيء
كما دون الصناعة الشافعي).

القوة في الحجة اشتهر عن الشافعي قوته في الجدل فكان الشافعي كثير المناظرة كثير الجدل، في كتاب الأم ما يزيد على مائة مناظرة تامة مما يدلل على أن كتاب الأم كتاب حجاج، كتاب جدل فيه ما يزيد عن مائة مناظرة.

كذلك كانت مجالسه كان يناظر كل من يتصدى لأقواله بالنقض وكان رحمه الله تعالى يبغي بهذه المناظرة طلب الحق لا مجرد الاستعلاء، ومع ذلك كان من يناظرهم الشافعي يطلبون اللقب والجدال لفرط قوته في الجدل حتى أن الصيمري قال الراد على الشافعي مغلوب، وكذلك قال داود بن علي.

وكان بشر المريسي على الطريقة الحنفية من أهل العراق كان يذهب إلى مكة ليحج أحياناً فكانت تلفته مجالس الشافعي فيحضرها ويرى ما فيها من صناعة البيان وقوة الحجة والبرهان ثم عاد إلى أصحابه العراقيين قبل قدوم الشافعي العراق وكان يقول لهم: رأيت رجلاً إن أنا لم أتكلم وما أخاف على مذهبنا إلا منه، فهذه شهادة عراقية للشافعي بأنه كان أحسن حجة وكان قوياً في برهانه.

ما الذي أعطته هذه القوة الحجاجية الجدلية للشافعي؛

قال الإمام ابن مهدي "لا يجوز أن يكون الرجل إماماً في العلم حتى يعلم ما يصح مما لا يصح، وحتى لا يحتج بكل شيء، وحتى يعرف مخارج العلم، وهذه الكلمات

فقال ما أصبنا بأن ابن مهدي الشافعي رحمه الله، فالقوة العقلية مضافة إلى القوة في الحجة وتمييز الحجة والقوة في الجدل ببعث أصحابنا على أنه تمييز في الحجة لمن يكون لا تقوم عنده مناظرة وتقوم في الكتابة ولابد أن تمييز بين ما هو صحيح وما لا يصح، ومن لا يميز بكل شيء فأعرف ليس غرضه أن يستكثر من الأدلة ضعيفها وقويها بل أنه يختار منها ما يكون أعظم ما في الباب من يكون لقوله قوة، وأنت إن احتججت على الحكم بالباطل أو ضعيفه فلابد أن يخرج عن الحكم بالحكم لمن يكون للحكم الذي يميزه قوة عنده من تريد إقناعهم بالدليل

وشرح الشافعي كله شاهد على أن الشافعي بصير بالعلم بمخارج العلم بل إنما صنف الرسالة لبيان مخارج العلم وبيان طرق العلم وبيان ما يصح أن يكون معتمدًا عند المناظرة في العلم ما يحتج به وما لا يكون كذلك.

أيضًا مما يلفتنا للمناظرات التي دونها الشافعي في كتبه أو هي مذكورة فيما دونوه من مناقب أنه كثيرًا ما يناظرهم الشافعي يذعنون له بالفضل ويذعنون للحجة بالقوة فكانوا يرجعون عن أقوالهم إلى قوله بل ربما تركوا مذاهبهم لمذهبه. قال أحد خصوم الشافعي للشافعي ما رأينا أحدًا قط من هذا لنا كالشيخ ولم نكلم صاحبنا بهذا ظننت أنه لا يقيم على قوله. هذا شاهد عراقي كاشف للشافعي حلاوة كثيرة،

٥- خامس هذه المقومات: التوفر همه على الفقه وإقباله عليه.

ومعلوم أن الشافعي رحمه الله تعالى كان موسوعياً في علومه ومعارفه إلا أنه مع ذلك كانت موسوعيته موسوعية واعية حيث أنه لم يغفل المشروع الأكبر مشروع الفقه لذلك لم يدع له كتاباً يخرج عن دائرة الفقه ويكون منصباً على تحقيق القول فيه، حتى أن الإمام أحمد رحمه الله تعالى يقول في فضيلة فيه أنه لم يكن يشتهي الكلام إنما همته الفقه، والشافعي نفسه رحمه الله تعالى قال: لوددت أن أضع على كل مخالف كتاباً بالمطلقات وأنه لا يعرف ذلك، قال: ولكن الكلام ليس من شأني، ولا أحب أن ينسب إليّ منه شيء،

حرملة بن عبدالله بن يحيى أحد أصحاب الشافعي يقول: ولدت في ذي القعدة لأربعة عشرة ليلة بقيت من سنة ستة وستين ومئة ولقد أدركت الشافعي من أفاضل المستبحرين من بين جنسه علوماً كثيرة فما كان أحد مثله في كل فن لقد قرأت عليه من أشعار هذيل مما أذكره مقصورة إلا أنشدنيه من أوله إلى آخرها على أنه مات وله أربع وخمسون سنة.

الربيع بن سليمان تلميذ الشافعي كان يقول كان الشافعي يجلس في حلقته إذا صلى الصبح ثم يجيئه أهل القرآن فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه عن تفسيره ومعانيه فإذا ارتفعت الشمس قاموا واستوت الحلقة للمذاكرة والنظر فإذا ارتفع الضحى تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر فلا يزالون إلى أن يقرب انتصاف النهار ثم ينصرف رحمه الله.

وقال ابن عبد الحكم: "ما رأيت مثل الشافعي كان أصحاب الحديث ونقاده يجيئون إليه فيعرضون عليه فربما أعل نقد النقاد منهم ويوقفهم على غوامض من نقد الحديث لم يقفوا عليها فيقومون وهم يتعجبون، ويأتيه أصحاب الفقه المخالفون والموافقون فلا يقومون إلا وهم مذعنون له بالحذق والدراية، ويجيئه أصحاب الأدب فيقرأون عليه الشعر فيفسره ولقد كان يحفظ عشرة آلاف بيت من شعر هذيل بإعرابها وغريبها ومعانيها وكان من أضبط الناس للتاريخ وكان يعينه شيئان: وفور عقل وصحة ذهن وملاك أمره إخلاص العمل لله.

فهذه النصوص تدل على موسوعية الشافعي وأن أصحاب كل علم يجدون ضالتهم عنده ولم يكن علمهم قاصراً على أن يسمعوا منه بل كانوا يعرضون عليه علومهم فيبين لهم وجهها وينقدها ويقومها

من العلوم التي كان الشافعي متفوق العقول فيها تطلب الاطلاع عليها العلم بأيام الناس وأحوال العرب، قال الربيع: "كان الشافعي إذا جلس كأنه سيل يهدر بأيام العرب"

وقال مصعب بن عبد الله الزبيري: "ما رأيت أحداً أعلم بأيام الناس من الشافعي رحمه الله عليه.

ومن العلوم التي كان حاذقاً يقول فيها العلم بالأنساب، يقول المزني قدم علينا الشافعي رحمه الله فأتاه ابن هشام صاحب المغازي فذاكره أنساب الرجال فقال الشافعي بعد أن تذاكرا: دع عنك أنساب

١٦

الرجال فإنه لا يذهب فيما ولا عقله ، ونحن نبا في أسباب الشك .
قال الميذي : فلما أخذنا فيها بقي اسم الشافعي . أي انقطع أصحاب الشافعي في أصل
العقول في ذلك فلا يصير في الأسباب الرجال الشك حتى يكثر أحد
أصحاب الشافعي كانوا مختصين في ذلك .

من العلوم التي كان الشافعي قليل التحصيل فيها العلم بالحديث ، ودليل
من ذلك شهادة إمام في منزلة أبي زرعة حين يقول ما للشافعي حديث
غلط ، وكان الشافعي يتوسع في الرواية ويتوسع في التحصيل ولكن لم يكن
تحصيله التوسع الحديثي فلم يكن موسوعيا بالقدر الذي يؤثر على فقهه كليا
وكان يأخذ من كل علم ما يعينه على ذلك فعلمه بالحديث كان واسعا وإن لم يكن
بمنزلة علم أقرانه أحمد وإسحاق وغيرهم ، ومن أمارات ذلك أن الشافعي كان
مكثرا من الحديث ولم يكن مكثرا من التفريع على طريقة أهل الحديث الذين
كانوا يتوسعون في ذلك ، لأن غرضه الفقه ليس غرضه جمع الروايات
وكان يسأله عن تعليلية ما لم يبلغه علمه من ذلك من خلال السؤال ، سؤال
المختصين في ذلك كالإمام أحمد .

كان الإمام الشافعي موسوعيا لكنه كان يخرج من هذه الموسوعية بأن يبقى
فقيها ، وكان اتباع العلم بين شيء وكونه وإقباله عليه معروفا من صفات
العبقرية ، والذي يعرف في الشعر قال لا يكون في شيء إلا إذا
كان العبقري يجمع العلم كله لأنه إذا اشتغل لم يستطع جمعه .

هذه المقدرة وصاحب هذه القوة أن يقدم أنظاراً جديدة فيه بل يكون ذكاؤه
وذكره مشوشاً منبثاً بين الفقه والحديث والتفسير ولغة العرب وأيام الناس
وكل علم لا صلة له فإذا كان متوسعاً في كل علم إلا الإحاطة بناحية فإنه لم يتفرغ له ليتم
حتى يحقق القول في أحد هذه العلوم، أما الشافعي فإنه قد توسع في العلوم
لكنه ركز تفكيره وجمع همه على الفقه ولذلك صح حين يقول "طلبت العلم
بالعربية وأيام الناس عشرين سنة فما أردت بذلك إلا الاستعانة على الفقه
وكان رحمه الله تعالى برأ صادقاً بدليل أنه لم يؤلف في شعر العرب ولم يؤلف
في كلامهم ولم يجمع ما جمعه غيره من دواوينهم، بل إنما أخذ من ذلك العلم
قدراً صالحاً جداً حتى أذعن له أهل ذلك العلم نفسه لكنه مع ذلك جمع ثمرة
وعطائه ليكون منفساً في صالح الفقه، والنجاح لهم على فرع كل صاحبه
أولى بأن يقدم نظراً جديداً فيه وهذا ما كان للشافعي فلاشك أنه
متى لمعة الخاصة بين الأئمة فقد قدم في الفقه رأياً جديداً وقدم في الأصول
بنياناً جديداً وقدم فيما يتعلق بالنظر في أحكام الشريعة العامة ولغة فيما يتعلق
بمعاني الكتاب والسنة شيئاً لم يلحقه أحد أهل زمانه فما ذلك إلا لأنه كان
عظيم الإقبال على هذا الأمر وإذا نظرنا في كتبه وجدنا كل كتبه موصولة
بالفقه لا تشذ عن الفقه في كتاب. بل إذا نظرنا في الأخبار التي تتعلق
بما كان الشافعي فيه واسع الاستنباط من الكتاب والسنة كما أن أشياخه

من الكتاب والسنة، فالعز فيما يتعلق بأحكام الفقه؟ فقيل للشافعي: رأى
جلست للقصة منتصبة، أقرأ كتاب الله إلا أن أؤذن بصلاة الصبح، أطلب
منها أحكام القرآن،
ولما سأل ابن جرير: هل كانت للشافعي سنة فيما يتعلق بالحلال والحرام في
أحكام الفقه؟ قال: لا.

٦- الصفة السادسة: الاشتراك بالمناهج والمدارس المختلفة

فالشافعي نشأ أول ما نشأ في المدرسة المكية على طريقة فقهاء مكة
ثم انتقل إلى مالك فورث عنه طريقة أهل المدينة ثم انتقل إلى العراق
فتعلم علم أهل الرأي وأخذ كتب محمد، وكان مما أنشأ ذلك قد ذهب
إلى اليمن وتلقى عن علمائها، فالشافعي استطاع أن يملك مزيجًا من هذه المدارس
وهذه المناهج التي كانت مختلفة في الأصول كما كانت مختلفة في البلدان.
فإذا أردنا أن نمر مرورًا سريعًا على هذه المدارس التي امتلكها الشافعي
ونظر، الشافعي أول احتكاكه كان بالمدرسة المكية، وأهل مكة إنما
بدأ العلم فيهم من أجل أعلم الصحابة وهو ابن عباس رضي الله تعالى عنه
بل إن في أول عهد الصحابة كان العلم بها قليلًا مع حلول ابن عباس لمكة
وقد كان ذلك سنة ٤٠ من الهجرة تقريبًا، فتشكلت لابن عباس مدرسة وصار
له تلاميذ، ثم بعد ذلك صار لتلاميذه تلاميذ وهكذا إلى أن بلغ هذا العلم
إلى الشافعي عن طريق جملة من أشياخه ممن ورثوا العلم عن ابن جريج الذي

مدرسة مكة تلاميذ ابن عباس

لتقديم الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى "أما الشافعي فإنه تفقه أولاً على المكيين
أصحاب ابن جريج كسعيد بن سالم القداح ومسلم بن خالد الزنجي وابن جريج أخذ ذلك
عن أصحاب ابن عباس كعطاء وغيره. ومما نلاحظه أنه يستوحى منها أن بذرة المدرسة
أن الشافعي شبيه في كثير من نهجه العلمي بابن عباس رضي الله تعالى عنه فالشافعي
كان عظيم الإقبال على كتاب الله عز وجل وألف في ذلك كتاب أحكام القرآن
وكذلك كان ابن عباس وهو ترجمان القرآن وكان من أوسع الناس وأحذقهم فهماً لما
في كتاب الله، وكان الشافعي عظيم العلم بلغة العرب عظيم الحفظ لدواوينهم
وأشعارهم وكذلك كان ابن عباس من قبل، وكان الشافعي مجالس متعددة في كل
ما علم وكان يأتيه أصحاب العربية وأصحاب الحديث وأصحاب الفقه وكذلك
كان ابن عباس من قبل، كان يأتيه من كل علم أهله فيجيبهم فيجدون بغيتهم عنده
فهذا ما ورثه الشافعي هذا المنهج التكاملي من خلال تلاميذ ابن عباس الذين
ورثوا هذا الفقه العلمي للمدرسة المكية.

وما يتعلق بالمدرسة المدنية فقد قدم على مالك وعمره ثلاث عشرة سنة وكان
قد قرأ عليه الموطأ وكان قد حفظه قبل ذلك لما أتى إلى مصر أخذ كتب أشهب
لتسد له نسخها ما فاته من علم مالك، ولذلك يمكن أن نقول أن الشافعي كان في
أول أمره كان فرعاً للطريقة الحجازية من المكية والمدنية، ولا يخفى ما لهاتين
المدرستين من اتصال بأهل الحديث ولو من خلال الخطوط العريضة العامة.

بدأ سنة أربع وتسعين ومئة اتصال الشافعي بالمدرسة العراقية لما
رحل إليها ولقي فيها محمد بن الحسن وكتب كتبه وجالسه وناظره وأخذ عنه
فاستطاع جمع علم السابقين بطريقة أهل الحديث وما كان عليه أهل مكة وأهل المدينة
واستفاد أن ضم إليهم ما كان عند أهل العراق من علوم ومعارف لم تكن معروفة عند
أهل الحجاز فضم علم العراقيين إلى علم الحجازيين. واستطاع الشافعي من خلال هذا
الاحتكاك وهذه الحيازة لهذه العلوم المختلفة ومناهج المدارس المتنوعة المتكاملة
أن يضع خطاً جديداً في تاريخ المعرفة الإسلامية من المدرسة اليمنية
كما يمكن أن نقول أن الشافعي لم يتأثر تأثراً كبيراً أو ملحوظاً كما تأثر
من المدارس الحجازية والعراقية ومن جملة شيوخه من اليمنيين مطرف بن مازن
ويحيى بن حسان صاحب الليث بن سعد وعمر بن أبي سلمة صاحب الأوزاعي
وهشام بن يوسف قاضي صنعاء وقد تضمنت كتب الشافعي الرواية عن بعضهم
وتضمنت أيضاً بعض الأخبار المتعلقة باليمن. ويبدو أيضاً عند الشافعي معرفة
حضوراً لافتاً لفقه طاووس وقد صرح هو في كتاب جماع العلم فقال "ونحن
نعلم فقه طاووس" وربما كان مطرف بن مازن هو الذي كان وسيلته لدراسته لفقه
طاووس. ونشاهد من هذا كله أن احتكاك الشافعي بهذه المدارس
وهذه المناهج المختلفة من شأنه أن يصقل عقله وأن ينوع معارفه
وأن يفتح له آفاقاً وأبواباً في العلم ويجعل منه أكثر تجديداً.

فهو احتك بهذه المدارس وعرف مزاياهم ولكنه زاد على ذلك كان همه أن يعرف الأصول التي قامت عليها: أصول أهل الحديث، وأصول أهل المدينة، وأهل العراق وكان يعيد النظر ليكون له بعد ذلك شأن وأي شأن وإن لم يدخل مصر إلا وقد كان المشروع في هذا أمراً كاملاً في ذهنه.

الربيع بن سليمان أتاه وهو في نفسه خارج مصر متجهة الشام فقال الشافعي للربيع كيف تركت أهل مصر؟ فقال الربيع تركتهم على فرقتين فرقة مالت إلى قول مالك أخذت به وذبت عنه وناضلت وفرقة مالت إلى قول أبي حنيفة أخذت به وذبت وناضلت عنه فقال الشافعي أرجو إن شاء الله أن آتي مصر أشغلهم عن القولين جميعاً " قال الربيع " ففعل والله ذلك "

وهذا يدلنا على مرحلة عبقرية هذا الإمام، وكيف أنه كان على وعي من حركة الذي يريد أن يحدثه جاذباً كل أنظار المتفقهين إليه فهو في تلقيه للأصول المدرسة العراقية والمدرسة الحديثية لم يكن فيها يتلقى تلقي التلميذ بحسب بل يتلقى منها تلقي الذي يريد التجديد فكان له ما أراد.

فإذا قيل ما علمنا أن تكون هنا أن أخذه عن العراقيين لم يكن أخذ جالس عند أشياخ فقط وإنما تعرض لبعض المباحث، والشافعي أتى إلى محمد بن الحسن وهو حامل العدة؟ حامل الآلة ولذلك كان يحضر مجالس محمد بن الحسن فكان إن خرج محمد بن الحسن من مجلسه فناظره يتجه إلى أصحابه ويناظرهم فبلغ ذلك

محمد بن الحسن ، فلأنه غضب وطلب من الشافعي أن يناظره فقال الشافعي له بأدب
وشرط حلقته إني أجلك عن المناظرة فألح عليه محمد بن الحسن ، والشافعي ملكه
الأصلية) ما جرى الأمر مناظرة مباشرة في مسائل قد تعقبها عليه .

لا شك أن الشافعي أخذ من مدرسة العراق كثيرا من فقههم في الجامع لفقه
لقوله أن الناس عيال على أهل العراق في الفقه لكن ابن تيمية يقيد تقييدا
مهما تفصيل في المسائل لا في الدلائل . فلأهل العراق فضل على سائر
المدارس في مسألة توليد الفروع ومن جهة صور المسائل أما الدلائل فلأن
الشافعي من أكثر مناقشة على العراقيين نقضه لأدلتهم .

وكان احتكاك الشافعي للمدرسة العراقية كان احتكاكا مفيدا للبلد

٧ - سابع هذه المقومات العبقرية الشافعي ما يتعلق لعناية بالتأليف واعتنائه كليه .
وكانت بذور ذلك موجودة لأنه منذ بدء تحصيله صغيرا كان طالبا لهذا الأمر
من حفظه وذلك بيده أجزاء أحاديث الناس ولا يحفظ ثم استشعر أن أوراق
فلأنه منذ كان صغيرا يجمع العظام والأكتاف ليكتب عليها من أملاءات وكلام
ما يسمعه . وهذا مما اتصف به الشافعي من بداية الأمر وكان حريصا أن يجعل
على التأصيل في عقله حاضرا من نفسه ومن يده وكان حريصا على أن يشترك
مشروعه العلمي ، وأن يكون هذا حاضرا بيانا في كتبه ويؤثر عنه ويكون له
رواة بعد ذلك فلأن هذا اعتبار كبير للشافعي رحمه الله تعالى
وكان له أعظم الأثر في أن يكون له موقع وأي موقع في دائرة المعارف الإسلامية

وكان تدوين الشافعي مترجمًا مراحله العمرية، وإن كان قد اختار للتأليف
من السنوات الأخيرة في مصر وذلك لأنه راجع كل إرثه الذي ألفه منذ أيام ⊙
ومنها أيام العراق ومنه ما أمر بتحريقه. والشاهد من ذلك أن التأليف
كممارسة كتابية كان حاضرًا عند الشافعي في شتى مراحله.

ما الذي يورثه التأليف والإقبال عليه في تشكيل العبقرية؟

التأليف لعقل الفقيه أشبه ما يكون بمرآة المعرفة واستقرار العلم إذا كان ملكوتيًا
والعلم إذا كان في الذهن لا يكاد ينكشف للناظر فيه من ثغرات في مستوى
السند ولا يكاد ينظر لمواطن القوة والضعف فيه، فإذا جعل هذا العلم
وانعكس أن يكون ذهنيًا إلى أن يكون في الأوراق فهذا يعينه على معاودة
النظر فيه وتكميله وتقويته وتجديده وهذا ما كان يفعله الشافعي
ولذلك كثير من الفقه كان له قول قديم وقول جديد، ولذلك في
الأصول نجد له رسالة قديمة ورسالة جديدة، ونجد له من مفصل القضايا
الأصولية يكون عند الشافعي فيها زيادة في النظر، إذًا التأليف ليس مجرد
ممارسة مهنية أو ممارسة شبابية بل له أثر كما أن البيان والتحدث
بالعلم له أثر في التصور من العلم والمعرفة، كذلك التأليف له أثر في علم
العالم ونظر الناظر فإنه يعينه من استكمال هذه المعارف التي كانت مكتوبة
في ذهنه ويوقفه على مواطن القوة فيثريها وعلى مواطن القصور فيها زيادة على
ما يحدثه ذلك من أثر استئنافي لتكوين العبقري عبقريًا وأن يكون

له تأثير قوي، فلا بد أن الأثر يوازي التأثير على الشافعي وإمكان أن
التأثير على الشافعي أنه كان حافظ ثبت حاضر أي كتبه، آثر مما زخارفه وتواتر
شراح العلماء من الشافعية على كتبه بيانا وترجمة وبرهانا، وكذلك كثرة مدارس
صحبه بعده خلافا للأئمة الذين اندثرت علومهم حيث لم تعرض أبدا أصحابهم
وهم أنفسهم لم يكونوا ايدونوا علمهم على نحو الدقة أيضا عند الشافعي
والشافعي لعنايته بالتأليف كان يشهد له كتابا وله طريقة رحمه الله في التأليف
أحيانا كان يملي إملاء وأحيانا كان يؤلف ثم يدعو كاتبه فلان ينسخ
ما كتبه الشافعي ثم تصحيح الشافعي لتلاميذه ويقرأ البويطي عليه في المجلس
وينسخ الباقون ما قرأه البويطي.

٨- كانت مقومات العبقرية عند الإمام الشافعي وأهم أمورها: إدمان النظر في الوحي
ودلائله.. إن كان من أهمها عدم إخلاله من مقومات العبقرية. والشافعي
رحمه الله تعالى كان عظيم الإقبال على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله
عليه وسلم وأنه كان يصلي العتمة ثم يضع المصباح بين يديه ولا يطفئه
حتى يصبح ينظر في أحكام القرآن كما تقدم الكلام عن هذا
ويُنقل عنه أنه لما أراد أن يصنف كتاب أحكام القرآن قال إني
نظرت في القرآن قبل أن أصنفه مئة مرة، وما ذلك إلا ليكون نظره
كتاب الله نظرا دقيقا وتسابقا ليكون له فهم ما أحكمه وأحكامه

قال المزني: كان الشافعي إذا دخل شهر رمضان يقوم الليل يصلي فإذا مرت به آية تشير لباب من أبواب الفقه يرجع ويسلم ويسرج السراج ويشتغل ثم يطفئ السراج ويعود إلى الصلاة ثم يفعل ذلك من الليل مرارا كثيرة وهذا أيضا يفيدنا ما تؤثره همة على الفقه وأنه ~~[illegible]~~ كان إذا مرت به آية يشتغل أن يستنبط منها حكما فقهيا فيدها ودونها لم يشغله عن ذلك شيء على قوة الشافعي في التفسير يقول كان الشافعي إذا أخذ في التفسير كأنه يشهد التنزيل

أبو حسان الزيادي يقول: ما رأيت أحدا أقدر على معاني القرآن والعبارة عن المعاني والاستشهاد على ذلك من اللغة من الشافعي، وهذا خبر مهم يفيدنا من الكرم من مفهوم الأول يقول أقدر على معاني القرآن وهذا لا يكون إلا بالقوة العقلية " والعبارة عن المعاني " وهذه قوة بيانية " والاستشهاد على ذلك من قول العرب " وهذه قدرة في توظيف الشعر وغيره في استنباط القرآن فالشاهد من ذلك كله أن الشافعي كان مقبلا على كتاب الله يستهدي بأنواره يطلب أحكام الله فيه وكان يقول "المستطيع لباب الشرع وما أشغله بأقضى الدنيا وما فيها وهكذا يكون لذة العالم بعلمه.

وكان الشافعي قوي على أهل الحديث فيما يتعلق بمعاني الأخبار وكانوا

لقد قيل لولا الشافعي ما عرفنا معاني السنة، ولهم في ذلك مقولات وأخبار كثيرة. وكان الإمام أحمد يقول " ما كان أصحاب الحديث يعرفون معاني أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قدم الشافعي فبينها لهم". وقال " لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث

وقال الكرابيسي " رحم الله الشافعي ما فهمنا استنباط السنة إلا بتعليم الشافعي فلماذا كانت له العبقرية وهل كانت النظرة الفقهية دون شك ؟

قال السبكي جيناً تأمل في كلام العلماء " وما أعظم التأمل في كلام العلماء" فإذا كان هذا من تأمل كلام العلماء وما يثمره من تفتيش لأبحاث الفهم فكيف التأمل في كلام الله عز وجل؟ والله تعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم " ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً " بالحق فهو العقل وأحسن تفسيراً فهو البيان فإذا كان عندنا تعريفاً بالقرآن فهو عقل بأعظم الأدلة والبراهين العقلية، وبهذا فلا شك أن من يوقف نفسه على معاني القرآن ومعاني سنة النبي صلى الله عليه وسلم سيكون من أعظم الأثر في تكوين العالم وفقه الفقيه وفهم البصير.

والشافعي رحمه الله تعالى كان يكثر مراجعة تصويرية لمعاني القرآن ومعاني السنة وكان له أحاديث وتمام حسن الحافظ فقه الكتاب وفقه السنة لذلك كان الشافعي من أعظم الناس ذباً عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم

الشافعي رحمه الله تعالى كان فقيهاً من أهل الحديث، من أعظم علماء معاني الأخبار وكان من المشددين على أهمية التعامل مع القرآن، وتفهم كتاب الله عز وجل وكان يحرص على طلبة العلم أن ينالوا من علم هذا القرآن منالاً عظيماً بل كان يقرر أن الناس طبقات بحسب موقعهم من العلم بكتاب الله، يقول في عبارة مشرقة من صدر الرسالة: "كل ما أنزل في كتابه جل ثناؤه رحمة وحجة، علمه من علمه، وجهله من جهله، لا يعلم من جهله ولا يجهل من علمه، والناس في العلم طبقات، موقعهم من العلم بقدر درجاتهم في العلم به" أي بكتاب الله — ثم يوجه النصيحة فيقول: "فحق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله في استدراك علمه نصاً واستنباطاً، والرغبة إلى الله في العون عليه، فإنه لا يدرك خير إلا بعونه" فإن من أدرك علم أحكام الله في كتاب الله نصاً واستدلالاً، ووفقه الله للقول والعمل بما علم منه فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الريب، ونورت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة، فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها".

هذا الكلام من الشافعي رحمه الله تعالى لا يقوله رجل إلا وقد امتلأ من رأسه إلى أخمص قدميه رغبة في كتاب الله والاستنباط للأحكام منه، ورجل بمنزلة الشافعي في نصرته للحديث واكتثاره الشديد في سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وحجته للناس في قبولها والاحتجاج بها وما اشتهر من الآثار والروايات الواردة في كتبه

أكثر أهمية الأخبار أو أهمية أخبار الكاهنة أو كان يتعلق بحديث لصاحبها عن ذلك
هذا الذي تستند كل هذه الأدوات لكونها متعلقة من الإقبال على هذا الوصف والذي
يشهد البصرة له ما كان قد وجهه من مصنفات كبار أهل العلم والفكر وأذكياء
الشريعة من أذكياء العالم ، لذلك كان الإقبال على الوصف والتفريق من أعظم مقومات
العبقرية لدى الشافعي وإن كان الشافعي لصحيحة كل ما تقدم بتفضيل العلماء لشيء
فلأنه كان عظيم الإقبال على الوصف ، عظيم الإقبال على معاني الوصف وآثارها وبعثها في الناس

الشيخ / مشاري الشثري

① تابع : ترجمة الإمام الشافعي

مخرجات العبقرية

لما كنا ذكرنا من مقومات العبقرية عند الإمام الشافعي بقي لنا أن نتحدث عن مخرجات هذه العبقرية التي صدرت لنا عبقرية هذا الإمام والتي كانت شاهدة على ما تملكه مقومات من أثر في علم هذا العالم.

والكلام عن هذه المخرجات من خلال ثلاثة محاور :

١- ما يتعلق بالتأثير ٢- ما يتعلق بابتكار المعرفة وإبداعها

٣- ما يتعلق بكتبه رضي الله تعالى عنه

١- ما يتعلق بالتأثير :

فقد كان تأثير الشافعي في خريطة العلم متوزع على أصناف ثلاثة : على أهل الحديث وعلى المدرسة العراقية وعلى المدرسة المدنية ، أما ما يتعلق بتأثيره على أهل الحديث فإن الشافعي رحمه الله تعالى فإنه أنقذهم بعد كانوا رقودا ، وهي دعوة ذكرها كثير عنه للشافعي على أهل الحديث وأن تنظر في طريقة تعاطي المحدثين عندما الشافعي عليهم وانتظر في صورة المحدثين في مقابل المدرسة العراقية حين ذكروا كيف كانوا قبل الشافعي وإلى أي شيء صاروا بعده رحمه الله تعالى.

يقول الإمام أحمد " ما أحد مس بيده محبرة وقلما إلا والشافعي في عنقه منة " ويقول " كان الفقه مقفلا على أهله حتى فتحه الله بالشافعي "

وقال هلال بن العلاء " الشافعي أصحاب الحديث عيال عليه فتح لهم الأقفال ".

فكان أهل الحديث كانت لهم عدة معرفية واسعة ولكن كان الشافعي قد علمهم من أن يستثمروا هذه العدة في بناء فقههم وفي التقدم على مخالفيهم

ومما يتعلق بصورة أهل الحديث على التعرف إلى أثر الإمام الشافعي، كانت صورة أهل الحديث عند المدرسة العراقية صورة قاتمة، وكانوا محل سخريتهم، وهناك عدة شواهد:

محاورة محمد بن الحسن الإمام العراقي الكبير فكان يومًا وهو جالس في مجلس الفرقة بالعراق وأخذ يزري بأهل الحجاز ويرد أقوالهم ويهون أصولهم ومذاهبهم قال: "أليس يحسنون ولا يحسن منهم أحد عشر مسألة"

الحسن بن محمد الزعفراني يقول: "كنا نحضر مجلس بشر المريسي وهناك يقدر على مناظرته فقلنا لأحمد بن حنبل ائذن لنا أن نحفظ الجامع الصغير الذي لأبي حنيفة لنخوض معهم إذا خاضوا. فقال أحمد بن حنبل اصبروا فالآن يقدم عليكم المطلبي الذي رأيته بمكة. قال فقدم علينا الشافعي فمشينا إليه وسألناه شيئًا من كتبه فأعطانا كتاب اليمين مع الشاهد، قال الزعفراني فدرسته في ليلتين ثم غدوت على بشر المريسي وتخطيت إليه فلما رآني قال ما جاء بك يا صاحب حديث؟ فقال الزعفراني لبشر ذرني من هذا وقال له: أيش الدليل على إبطال اليمين مع الشاهد.
فقال فناظرته فقطعته، فقال بشر: أخبرني أنه من الموضوع أمر؟ وقال هذا ليس من كلامكم وبشر قد لقي الشافعي في مكة قبل أن يقدم، فقال هذا كلام رجل رأيته بمكة معه نصف عقل أهل الدنيا.

أول ما أتى الشافعي إلى العراق كان أبو ثور والكرابيسي على طريقة أهل العراق علموا أنه فتى من أهل الحديث قدم العراق فقال أبو ثور للكرابيسي قم بنا نسخر به، فلما دخلنا عليه فسأله الحسين عن مسألة كأنه يختبره فقال

فلم يزل الشافعي يقول قال الله قال رسول الله، حتى أظلم علينا البيت،
فهم لم يكونوا يعرفون أنه يحتج عليهم بكتاب الله وسنة رسول الله مبيناً أوجه
حجته، فقال فتركنا ما كنا فيه واتبعناه، ولذلك أبو ثور والكرابيسي معدودان من أهل
العراق الذين انتقلوا إلى طريقة الشافعي وفقه أهل الحديث.

الربيع يوضح جهده ويلخصه لك فيقول: "إن أصحاب الرأي كانوا يهزأون
بأصحاب الحديث حتى علمهم الشافعي وأقام الحجة عليهم"، وتنبئ على ذلك أن
الأحناف أصحاب الشافعي في كتبهم غالباً ما يصفونه مع أهل العراق وهم يسمونهم بعض الناس
أو يسمونهم خصومهم.

كان الإمام أحمد يقول: "كانت أقفيتنا أصحاب الحديث في أيدي أصحاب أبي حنيفة ما تنزع
حتى رأينا الشافعي رضي الله عنه، وكان أفقه الناس في كتاب الله عز وجل وفي سنة رسول
الله صلى الله عليه وسلم". وسأذكر لك هنا مسألة كبيرة في الدلالة على نسبة
الشافعي إلى أهل الحديث.

ولولا جهود الإمام أحمد رحمه الله لما كان للشافعي هذا الحضور عند المحدثين، لأن المحدثين
لم يكونوا يعرفون أنه يتكلم الفقهاء بالروايات والأخبار دون أن يشتغل بالرأي
والفقه فيها على نحو ما كان يصنع الشافعي، فكان الإمام أحمد يبذل جهوداً واسعة
حثيثة لتأتي أهل الحديث إلى مجالس الشافعي وأحياناً ليدل أهل الحديث على كتب
الشافعي، يقول أبو داود تلميذ أحمد: ما رأيت أحمد يميل إلى أحد ميله إلى
الشافعي، ويقول الزعفراني: ما ذهبت إلى الشافعي إلا وجدت أحمد بن حنبل.

فما طلبه فكان أحمد الراوية للشافعي فينا؛ لأنه يعرف أنه للشافعي عطاءً ليس بالمألوف ويعرف أن له من الأدوات ما ليس لأهل الحديث لو أنهم تمثلوا فقهه لاستطاعوا أن يعلموا ما كانوا يعلمونه.

يعقوب ابن الحكم يقول: «لما أتى بشر الشافعي نجد أحمد ابن حنبل قد سبقنا» أبو بكر الصيرفي يقول: «قال أحمد: صاحب الحديث لا يشبع من كتب الشافعي»

قال إسحاق ابن راهويه: «كان أحمد يجالس الشافعي ولا أجالسه فقال لي أحمد يا أبا يعقوب جالس هذا الرجل فقلت له ما أصنع به سنه قريب من سننا أترك ابن عيينة والمقبري وأقول الناس فقال أحمد ويحك هذا يفوت وذاك لا يفوت» وقال إسحاق «وكان أحمد بن حنبل مشغوفاً بالشافعي بعلمه وفقهه والله ما صنع أبو عبد الله شيئاً إلا من بعده.

يقول عبد الملك بن عبد الحميد: قال لي أحمد ما لك لا تنظر في كتب الشافعي فما من أحد وضع الكتب منذ ظهرت أتبع للسنة من الشافعي. ويقول أحمد لأحد من أصحابه أبو سعيد أردت الخروج إلى مصر فأتيت أحمد بن حنبل فقلت يا أبا عبد الله إني أريد الخروج إلى مصر فما تأمرني أن أكتب قال له اكتب كتب الشافعي

محمد بن مسلم بن وارة يقول لما قدمت من مصر أتيت أبا عبد الله أحمد بن حنبل لأسلم عليه فقال لي كتبت كتب الشافعي قلت لا فقال لي فرطت ما عرفنا العموم من الخصوص وناسخ حديث رسول الله من منسوخه حتى جالسنا الشافعي.

ومعطيات أخرى كثيرة تدل على أن الإمام أحمد استفاد من رواياته وجمعه في أوساط

ووصفوا أهل الحديث من بعدهم على علم هذا العالم فكان من أمثالهم عليه الحكم الإشراف تكلمهم وتقدم علمهم.

تأثير الشافعي في المدرسة الفقهية العراقية:

الشافعي يعرف للعراقيين فضله فيما يتعلق بالفروع وكان الشافعي يقول "الناس عيال على أهل العراق في الرأي" ومن كلامه أيضا قال "لو أن أبا حنيفة بنى على أصول أهل المدينة لكان الناس عليه عيال في الفقه ولكنه بنى على أصول هي تختلف في الأصول أحيانا في الفروع، فالشافعي لم يرفض كثيرا من أصول أهل العراق وكان الشافعي معجبا بتتبع فروع العراقيين فكان يشعر من أنه إذا أخذ كتب محمد بن الحسن قال ما هذا وضعت أمام كل مسألة أحاديث أي ردا عليهم.

العراقيون كانوا يحسبون منزلة الشافعي وكانوا يعرفون قوته وكلمته، يقول محمد بن الحسن "إن تكلم أهل الحديث يوما فبلسان الشافعي" وقال أحمد كانت أقفيتنا لينة وشيئ ثلاثة علينا فالشافعي قيل له لما قال ثقاته والتشبيه في المناظرة قال الشافعي نفسه تقبل من محمد بن الحسن يقول ما لا أحصيه تقول لأصحابنا إن أصحابكم الشافعي في كلامهم من أن يصبروا كلمة. فالعراقيون يعرفون أن الشافعي له من الأثر ما جعلهم يتحاشون مخالفته ويطلبون موافقته.

فالشافعي أعاد ترتيب المعادلة بين أهل الحديث وأهل الرأي وصار لأهل الحديث صولة وجولة وصاروا يتصدرون على الفقه الرأي ويناظرون ويجادلون أهل الحديث.

أما بالنسبة للمدرسة المدنية فكان الشافعي مجلًّا لأهل المدينة ومرتضيًا لجملة أصولهم على أنه لما قدم إلى محمد بن الحسن لما قدم العراق كان أول ما حفزه للرد عليه أن محمد بن الحسن ألف كتابًا يرد به على مالك وأصحابه فأخذ الشافعي في النقد والرد عليه وألف كتابًا في ذلك فكان الشافعي يعرف لأهل المدينة قدرهم ويعرف لأصولهم مقامها وكان يوصي طلابه بأن يعرفوا أقوال متقدمي أهل المدينة وقال ليونس بن عبد الأعلى: والله ما أقول لك إلا نصحًا إذا وجدت أهل المدينة على شيء فلا يدخلن قلبك شك أنه الحق" ~~وقال له إذا وجدت متقدمي أهل المدينة على شيء فلا تشك~~

حتى لقد قال عنه بعض الكتب أصحابنا إنما يعنون به أهل المدينة وخصوصًا الإمام مالك.

إلى دخول الشافعي مصر لم يكن يظهر خلاف أهل المدينة أي لم تتكشف له بعد مواطن الضعف عندهم ويضعف ما زعموه على ما أصلوه من أصول وقواعد حتى لقد وكان يقول "كنت أعلم أن مالكًا لا يخالف حديثًا إلا لسند عنده حديثًا ورأيته يقول بالأصل ويدع الفرع ويقول بالفرع ويدع الأصل" وكان الشافعي في كثير من أقواله القديمة يوافق فيها قول مالك، لكنه لما دخل مصر في آخر عمره وكان يحسب جزءًا مالكيًا وكان بعض أهل مصر من أصحاب مالك قاطعين على كلام مالك يذبون عنه وينشرونه إلا أن الشافعي كما تقدم لنا لما قدم مصر كانت قد تشكلت الصورة عنده كاملة وعرف أنه لا بد أن يأتي بمذهب جديد يجمع زبدة وأحسن ما في المدارس

الأخرى ولضيف إليه ما يكون أقوى منها قولاً وفقهاً ونشأ به عن الفروع والأصول الصحيحة فقدم مصر داحراً علماء مالك فكان هذا أول شرارة قدحها الشافعي في المذهب المالكي. فهذه الحملة التي قام بها الشافعي أحدثت شرخاً في صفوف المالكية، كما أنها أحدثت شرخاً من قبل في صفوف العراقيين، وكان دخوله العراق حربة على العراقيين وأضحى دخوله مصر حربة على المالكية حتى بلغ بحال بعضهم أن استعدوا عليه السلطان،

عن الربيع بن سليمان مرة رأى أشهب تلميذ مالك وصاحبه ساجداً قال رأيت أشهب بن عبد العزيز ساجداً وهو يقول في سجوده اللهم أمت الشافعي لا يذهب علم مالك، وهم يعرفون أن الشافعي قوي في أصوله قوي في الحجة قوي في بيانه ولا يكاد يصمد له أحد من خصومه المدنيين فلكونه في مجابهة أصحاب الإمام مالك.

حتى أنهم يعترفون بأنه استعدى الحاكم على تلاميذه على الموطئين خصوصاً.

الذي يعنينا من هذا العرض أن الشافعي قد قوى المدرسة الحديثية وانتقد المدرسة العراقية، أثر فيهم كما أثر في المدرسة المالكية في جعل كثيراً من المالكية يرجعون عن قولهم، البويطي، الربيع، محمد بن عبد الله بن الحكم

وهذا التأثير من شخصيات تلك المقومات لأنه لم يكن له تلك المقومات لم يستطع أن يحدث هذا التأثير الهائل الذي كان له أثر في زمانه وله أثر بعد ذلك في تشكيل خارطة الفقه، وتغيير وجه الفقه بعد أن كان بين مدرستين، أصبحت ثلاث مدارس أخذ مدرسة ثالثة جاءت على أنقاضها كلها من أتى بعده

ما الذي أحدثه الشافعي لأهل الحديث في مواجهة هذا الفرع؟

أنه أوجد لهم نظاماً استدلالياً مكنهم من أن يستثمروا ما عندهم من الآيات والأحاديث في بناء فقههم والرد على مخالفيهم؟ إيجاد هذا النظام هو من أبرز ما أنجزه الشافعي، فقوته العقلية مكنته من أن يستخلص من جزئياتها الفروعية ومن هذه الثروة الحديثية الضخمة لديه ولدى أصحاب الحديث أصولاً منها استخرج من هذه الجزئيات كليات يرجع إليها المجتهد بأدلة ويستدل على من خالفه.

فكان يسمى الشافعي ناصر أهل الحديث ومن أشياء الله مكنته من هذا الشأن أنه كان عالماً عربياً فصيحاً له بلاغة. وكان حاذقاً في نشاطه وإيضاح نظامه وتمييز بين ما كان حقاً وما ليس بحق وكان يعرف مخارج الكلم ولطف مدخل الرد على خصمه ما يلزمه فيما يعتقد من أصوله وفروعه، هذا كله جعل الشافعي بقوة عقله وقوة حجته وجدله وقوة بيانه، هذا الذي جعله يتصدى من أهل الحديث ويحمل العراقيين المدنيين على مواجهة حاسمة مع كثير من الأخبار النبوية والآثار الصحابية.

قال الإمام أحمد بن حنبل "الشافعي أتبع الصحيح بمسلكه لا يكاد يخرج حديثاً صحيحاً أحداً أو كلاماً بلا قط ما لك في هذا الباب" وقال "ما لك حفظ من قواعد الشريعة ومقاصدها ما لم يضبطه الشافعي من السياسات والمعاملات ورعاية المقاصد والنيات وهذا أشبه بأصول المدينة كما أن الأحاديث الخاصة أشبه بأصول الفقه وهؤلاء أقرب من الكوفيين في هذين الأصلين فإن الكوفيين الذي خالفوا للنصوص لا للقياس فالكوفيين من أبعد الناس في هذه الجهة التي خالفها أهل الحديث.

ثانياً: شهادات المعاصرين بسبق هذا الإمام الكبير

المعاصرين للعلوم التي ابتكرها وأبدعها.

إذا نظرنا في شهادات مشهورة لعلماء معاصرين كثيرة هنالك شهادات تدل على أن هذا الإمام أصبح مشيداً جديداً على مستوى الأصول من المقام الأول وأيضاً على مستوى الاحتجاجات المفصلة.

ابن الفضيل يقول "أما الشافعي رحمه الله فقد صنف الكتب وفتق العلم"

الفضل بن زياد يقول "ما لبس أحد الشافعي قلمه فأخذته للتصنيف بكلام قريش"

الحسين الكرابيسي يقول "ما أظن أحداً أحيا الشرع من أفواه الناس بالكتاب والسنة والإجماع" "ما كنا ندري ما الكتاب والسنة نحن والأولون حتى سمعنا الشافعي الكتاب والسنة والإجماع".

الشافعي عليهم من أنه يذكر أبناء الأدلة أنه يوجد السبيل والحجة للاحتجاج بها لذلك على الكرابيسي كانت دهشة – هذه موجودة في كتاباتهم لكنهم لم يكونوا بذلك يحددون تحديداً عنها والاحتجاج بها.

يقول الإمام أحمد بن حنبل ما عرفنا ناسخ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من منسوخها ولا مجملها من مفصلها ولا مجملها من مفسرها حتى جالسنا الشافعي.

أبو ثور يقول "فنظرت إليه فإذا هو شاب فإذا لفظه لسان الدارع"

عبد القاهر القرشي في طبقاته يقول "لقد أخرج الشافعي باباً من العلم ما اهتدى إليه الناس من قبله وهو علم الناسخ والمنسوخ"

إن الشافعي فيما يتعلق بالرواية لم يكن يتوسع توسع المحدثين إلا أنه كانت له
منة عليهم أنه أوجد لهم أصولاً حديثية لكل أوجه الفقه والأصول معرفية

البيهقي يقول " له في كتاب الرسالة وغيرها من معرفة الحديث أصول لم يسبق إليها
ومنها أخذها من تكلم في هذا النوع من العلم.

الخطيب البغدادي يقول " كلامه في أصول الحديث وحكم المرسل والمتصل وتمييز
وجوه المخصوص وذكر العموم والخصوص مما لم يدركه الكلام فيه أبو حنيفة
ولا كثير من متقدميه "

النووي لما تكلم عن الإمام قال " لكم من مناظرة وأدلة قوية تقطع كل من وقف عليها
وأشفق حسدهم أنهم لم يسبق إليها "

ومن خلال الاستنباطات والاجتهادات نجد أن الشافعي قد سبق الناس إلى كثير
من القضايا التي قد تغمض على أذهانهم فإن الشافعي أنكر القول فيها وأشبع
الحديث عنه.

وفيما يتعلق على مستوى التأليف: كتب له مؤرخات أنه سبق الناس إلى تأليف
كتاب الجزية ولم يكن قد صنف قبله كتاب عن ذلك وهذا أمر يكون معروفاً لأنه
تحرك الصحابة في مجال معاشي للأحكام التي تقضى بها على أهل الذمة من النصارى
بخلاف هذه الأمة من الصنف هذا الشأن في كتاب؟

يقول الذهبي: لو لم تكن تصدى عن الشافعي كل منقول لقلنا على عنه بتصوف
العلم بالمكان علم كيف تصدى؟ لأن الشافعي من أعلم الصحابة على طلبته من بعده

- وقال بعض تلاميذه " والله إن لسانه أكبر من كتبه ".

لقول المزني: قال له رجل - أي للمزني - يا أبا إبراهيم أملي عليك الشافعي كتاب الرسالة في مرض فقال نعم ولا أعلم أحداً سبقه إليه "وقال" أي كلام كان من يذهب عند الشافعي ذلك لم نكن نفهم معظم ما يرد عليه إلى الموت.

والمراد أن من مواطن العبقرية عند هذا الإمام أن هناك عنده معارف وعلوم على مستوى الأصول والفروع مبتكرة لم يسبقه إليها أحد وما كانت له أهلية ليصنع ذلك إلا بما عنده من الحديث من المقومات العبقرية التي جعلته من مثل هذا.

تنبيه: أنت إذا قرأت كتب الشافعي لم تركن إلى مألوفاته حتى تعرف عبقرية الشافعي وابداعه وبعض أقواله حاول أن تتخلص من مألوفه وتعيش في ذلك العصر وتعرف مع المعرفة أي كلام قدمه هذا الإمام الكبير

ثالثاً محطات العبقرية: كتب الإمام الشافعي ومؤلفاته:

وإن كان من قدرة على تحليل عناية العلماء بكتب هذا الإمام وكذلك حرص بعضهم العظيم على دراسة كتابه ولاسيما الإمام أحمد رحمه الله عليه وقد تقدم لنا شيء من كلامه قبل ذلك أن من كلامه رحمه الله تعالى قال أنه قال لعبد الملك بن عبد الحميد لما لا تنظر في كتب الشافعي فقلت له يا أبا عبد الله كم من شيء فقال عليك بالرسالة فالنظر فيها لأن أحسن كتبه.

ومما يجب التقدمة به أيضاً في هذا المقام أن نذكر أن للكتبة تأثيراً كبيراً في الكتب التي صنفت بعد ذلك؟

نقول البيهقي شهادة عامة: وظاهر بين في كتب من صنف في أصول الفقه بعده أنهم عنه اقتبسوا علمها وفي تأسيسه وتصنيفها.

كتب الشافعي :-

كتاب الرسالة : الذي هو يمثل ذروة عطاء الشافعي في مبحث البيان لفظاً في الشريعة من الكتاب والسنة؟

المزني يقول: قرأت كتاب الرسالة للشافعي خمسمائة مرة ما من مرة منها إلا استفدت منها فائدة جديدة لم أستفدها في الأخرى.

والشافعي قد كان صنف الرسالة في القديم ثم أعاد النظر فيها وصنف الرسالة الجديدة في مصر وهي التي بين أيدينا الآن.

وهذا الكتاب مع أنه كتاب منهجي ولكنه بذاته يعتبر وثيقة تاريخية نستطيع من خلاله أن نستدل على واقع ذلك العصر وأن ننظر في صميم الجدالات المعروفة التي كانت تجري فيه حتى تعرف الرسالة طلاب أنه تعرض لما قدمنا ذكره من أحكام الشافعي تلك المدارس وكيف أنه أشرف بها وأنه أسس لفرق أصول العراقيين والمدنيين ويعرف من اجتهاد الإمام الشافعي في هذه [illegible] فهذا الكتاب كتاب منهجي ووثيقة تاريخية وخلاصة تجربة حافلة للشافعي في تصوره ورؤيته - وكأنه الغرض الرئيسي هو خدمة المنهج

ومضى هذا الكتاب على الأدلة بالكتاب ثم السنة ثم خاض الشافعي في قضايا المعاني المتعلقة بالكتاب والسنة من العام والخاص وما يتعلق بالناسخ والمنسوخ وما يتعلق بالاحتجاج بالحديث وما يتعلق بالأحاديث وفيه تعريف اختلاف الحديث ما يكون مختلفًا وما ليس كذلك ومعرفة ما كان من الناسخ والمنسوخ ومعرفة من العام والخاص ثم تكلم عن القياس والإجماع والاستحسان وما قال الصحابة على كل مستوى ومراتب ذلك كله. فخرج الشافعي فيما بعد من الرسالة لتقرير بعض القضايا المهمة على شكل أن القضايا المنهجية التي قررها. ويعد الأصول الظاهرة فيها مقصورة على إجمال، والفروع كذلك، ويعد الرسالة ملأى بالفروع التي أتى الشافعي بها لتقعيد تلك الأصول وشرحها وبيان شواهدها ودلائلها من الكتاب والسنة. والرسالة تمثل ذروة العطاء البياني عند الشافعي فعباراته مبنية محكمة جزلة لأن الناظر في هذا الكتاب يستطيع أن يقوم لسانه ويقوي ملكاته الظاهرة وعباراته، وكيف يعبر لمن العلم بمقاصد هذا الكتاب أعظم العون له على ذلك.

كتاب الرسالة تضمن أكثر مقدمات الشافعي العلمية والمعرفية ودوره في العلم وبهذا الكتاب يتضح كتب الإمام الشافعي كتابة فائقة.

وأيضًا من ضمن كتبه جماع العلم وهو كتاب صغير وهو من رحلة الإمام والتي كانت قدامى بالطبع. وهذا الكتاب يعد من أهم الكتب الأصولية عند الشافعي بعد كتاب الرسالة؟ تناول فيه جماع العلم والكتاب

من السنة والإجماع، ثم طائفة تنقض الإجماع، ثم كلام المتقدم في أهل السنة
اعتبار أخبار الآحاد بحرمته، إذ وقف بين يدي الله عز وجل، المنكر لقبول الأخبار كلها
في وجه ورودها، والمنكر لقبول أخبار الخاصة في وجه ورودها ولم يقبل المتواتر
المنكر للأخبار أصلاً ويعنى بهذا الباب من حيث قوة الحجة والتأكد في العبارة والتنبيه
كيف يرد على الخصم ما يلزمه ويفند قوله، إلى الشافعي في ذلك بشيء لا يستطيعه
إلا من كان في مثل طاقته من العلم والعبقرية، وكان الشافعي قد بنى هذا الكتاب
على طريقة المحاورة، يذكر قول خصمه ويرد عليه، وكذلك في بعض الرسالة
والشافعي في الكتاب جمع العلم المحض منه كثيرًا من المناظرات التي حاضرها وأخذ فيها آراء
فالشافعي يضع لنا في هذا الكتاب زبدة مناظرات قد خاضها في الذب عن السنة والأثر.

ثم كتاب بيان فرائض الله تبارك وتعالى: يقع في ثمان صفحات موضوعه الرئيسي
تكمن في معرفة الشافعي أن الفرائض بجميعها ثابتة على ما فرضت عليه ثم
تفرقت شرائعها بما فرض الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم فتفرق بين ما فرق
فيها ونجمع بين ما جمع منها ثم .. فلا نقيس فرع شريعة على فرع شريعة أخرى.
مثلاً: كالصيام المفروض في رمضان في وقت معين ساقط له أن يخرج الصيام عن وقته والصلاة
في وقت آخر، والصلاة فرضت في وقت تلك المسافر يجب عليه أن يقصرها في وقتها
ولا أن يؤخرها. فلا نقيس فرض الصلاة على فرض الصيام فيما يتعلق بهذا التأخير
والإخراج عن الوقت والقضاء

وهذا الكتاب أكمل بجماع العلم، والكتاب الثاني الذي ألحق بجماع العلم وحقه أنه يفرد وهو كتاب "جليل" "صفة نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم": يقع في خمس صفحات وهذه الصفحات تناول الشافعي تفصيل في كتاب الرسالة وغاية ما فيه بيان أن أصل دلالة النهي على التحريم إلا أن تأتي دلالة صارفة.

ثم كتاب إبطال الاستحسان: وهو كتاب صغير يقع في قريب من ثلاث صفحات ونصف ومع وجازته وصغره إلا أنه يعد من عيون كتب الشافعي وعلى اختصاره فهو محكم العبارة كثير المعاني. وقد قصد الشافعي في هذا الكتاب أن يرد على مدرستيه المدنية والعراقية الذين يستدلون بالاستحسان، والاستحسان كثر فيه قول الدليل وهو من الأهمية بمكان، وإنه كان من الأوفق فيما أن يقرأ هذا الكتاب من المدرسة المتأخرين قبله ليعرف شيئا لأن الاستحسان الذي يعرفه المتأخرون ليس هو الاستحسان الذي تكلم عليه الشافعي. فهذا الكتاب من الكتب التي يتعين قراءتها وتكرارها وهو من أركان الشافعي وأعظمها جلالة. والاستحسان أنه هو ترك مقتضى القياس، والشافعي يقول لا مقام لقول المجتهد في هذا المقام، الشيء عليه إلا أنه يقول بالظاهر من جهة العلم من الكتاب والسنة والإجماع والقياس، لا يخرج عنه مع جمهور الفقهاء. وهذه المسألة ترجيحا من كونه حقيقته. ومرادي هنا أنما يحتج به الشافعي في دعائم مدرسته ذات ... في الاستحسان وهو ما كان في المدرسة العراقية ومن قولهم أنهم يقولون الحكم حيث العلم ولو حيث ظاهر العلم.

ثم كتاب الجمع بين النصوص المتعارضة والناسخ والمنسوخ والمجمل والمفصل.

وهذا الكتاب طويل لسبب هو أنه لا يكون إلا مع مجلد كامل من كتاب الأم الجليل للشافعي وقد أفرد بالطبع قديماً وحديثاً. والكتاب موضوعه مبتكر، فالشافعي ناصر رحمه السنة والعلماء قبله شرحوا الأحاديث ما سواها فالشافعي أراد من هذا الكتاب تقرير تفنيد ما يدعيه من يقول أن السنة منها ما يترك لصالح سنة أخرى فالشافعي وضع قاعدة فمن اختلف من الأحاديث مقبول منها ما يكون ناسخ ومنسوخ ومنها ما لا يكون كذلك؟ أي لا يصار والكلام القول بإبطال بعض السنة لصالح بعض بل منها ما يكون من جهة مثل العام والخاص، وما اختلفت السنة ولكنها اختلفت دلالة الأمر عليها أو دلالة النهي عليها، ومنها ما يكون عاماً ومنها ما هو خاص ومنها ما هو مجمل ومنها ما هو مفصل فالشافعي يريد أن يعالج قضية المعارضة المشار إليها إبطال بعض السنة لصالح بعض مقبول. هذا لا يصار إليه إلا إذا لم نجد منصرفاً صالحاً لبناء بعض السنة على بعض فنصار إلى الناسخ والمنسوخ وهذه القضية ذكرها أيضاً في الرسالة ولكنه في هذا الكتاب استقل بشكل تفصيلي كامل جداً والشافعي تعرض فيها لما يقرب من ثمانين مسألة وذكر فيها ما يقرب من مائتين وسبعين حديثاً وسبعين باباً.

قال ابن كثير: "كان الشافعي من أجل الناس بأصول الفقه وأعلمهم بالجمع بين النصوص المتعارضة وناسخ ومنسوخ المجمل والمفصل".

ثم كتاب "اختلاف العراقيين" للشافعي صنف مجموع عن كتب المذهبين في المدرسة العراقية يسمى أيضاً كتاب "ما اختلف فيه أبو حنيفة وابن أبي ليلى".

ولهذا لم يصف الشافعي هذا الكتاب بل نقل لنا كتاب أبي يوسف فالشافعي هو الذي حفظ لنا هذا الكتاب. وكان أبو يوسف قد جمع المسائل التي قد خالف فيها ابن أبي ليلى شيخه أبا حنيفة ... فأتى الشافعي فأثبت كتاب أبي يوسف على الوجه فأخذ يعلق عليه مسألة مسألة ويقابل الكتاب بعض المسائل الخلافية بين الشافعي مسبوقة بمقدمة ... العراقية من خلال كتاب أبي يوسف.

الكتاب الثاني: الرد على محمد بن الحسن .. في الكتب التي صنفها في الرد على مدرسة العراق. محمد بن الحسن كما تقدم ألف كتابًا ردًا على أهل المدينة فالشافعي لم يرتضِ طريقة محمد بن الحسن فالكتاب الذي ألفه فصنف ردًا عليه لكن الذي وصل إلينا ما يتعلق بمسائل الديات والقصاص والذي علق عليه الشافعي في كتاب محمد بن الحسن عشرون مسألة وقالوا إن محمد بن الحسن هو أول من ألف الرد على مدرسة المدينة والشافعي أول من رد على محمد بن الحسن.

ثم الكتاب سير الأوزاعي - وهذا الكتاب أصله أن أبا يوسف رحمه الله كان قد صنف هذا الكتاب ليرد فيه على الأوزاعي رده على أبي حنيفة في مسائل السير والجهاد والشافعي أخذ هذا الكتاب فقرأه الشافعي وأثبت الكتاب على وجهها الكتابين أبي حنيفة والكتاب ابن أبي ليلى وكتاب أبي يوسف ثم تكلم عليها وعقب عليه فيه وعدد مسائل الكتاب تقريبًا خمسون مسألة. ووافق الشافعي أبا حنيفة في نحو عشر مسائل ووافق الأوزاعي في نحو عشرين مسألة وخالفهما في الباقي. وكان حريصًا على بيان حجته في ذلك ولم يكتف بعرض الكتاب المطلوب فقط بل كان يثبت قوله ويثبت حجة ذلك كله

كتاب اختلاف علي وعبد الله بن مسعود:

والكتاب يعرض أنه يتناول القضايا التي اختلف فيها هذان الصحابيان ولكنه في حقيقته يحمل تسمية أخرى وهي "ما خالف فيه أهل العراق عليًا وابن مسعود" ماذا يريد الشافعي من هذا الكتاب؟ يقول أنتم يا أهل العراق تعتمدون في كثير من أقوالكم على علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود فما بالكم في مسائل كثيرة تخالفونهما؟ أخطأ الصحابي منفردًا أم الأمر اجتمعوا الصحابي على دليل الشافعي عليهم ويقع الكتاب في أكثر من مائة وعشرين صفحة.

يقول البيهقي اشتغل بعض العراقيين على الشافعي بأن مذهب أبي حنيفة مبني على قول علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود فأخرج من كتبهم من الأقاويل والأحاديث ما خالفهما أبو حنيفة، الشافعي كتب في هذا الكتاب مائة وستون مسألة اختلف العراقيون عليًا فيها قريب من مائة وعشرين مسألة وخالفوا ابن مسعود قريبًا من عشرين مسألة، فالشافعي أخرج هذا الكتاب واشتمل لجمع آثار علي وابن مسعود ممن يرون وهذا أصل الحنفية في ذلك وكيف أنهم تناقضوا في عدم الاحتجاج بقول هذين الصحابيين رضي الله عنهما.

فأهمية هذا الكتاب من جهتين أولاً أنه من ضمن الكتب الذي رد بها الشافعي على أهل العراق، والثاني أنه حوى كثيرًا آثارًا عن علي وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، والأمر الثالث أنه بين رد على أصل الحنفية في هذا المقام.

كتاب اختلاف مالك والشافعي:

وهذا الكتاب أملاه الشافعي للرد على المدرسة المدنية ويقع الكتاب
مغايراً فيه لكتب الشافعي التي يشرح الشافعي القول فيها أما هذا الكتاب
فهو محاورة بين شخصين بالتأكيد، والتلميذ يبتدئ القول: تقول فلما للشافعي أنا
سألت الشافعي ثم يحكي جواب شيخه ثم أن الشافعي قرأه وأثبت هذا الكتاب
في حياة شيخه ولذلك كله في ضمن كتاب الأم وهو طويل بالنسبة لعدة ما كتبه
عنه، والسائل فقيه جدلي من الذين كانوا يسائل الشافعي، فظاهر الأمر الذي
كان يسأله هو الربيع والربيع كان مدنياً فمن المنطقي أن يكون هو الذي يحامي عن
قول مالك، وبعضهم قال أن السائل هو البويطي.

والشافعي عنى بكتابه من أنواع الاختلافات، ذكر في الكتاب الرئيسي أنه
يقول لأهل المدينة أنكم لم تتفقوا على أصل تفقهون منه كما رد
على العراقيين باختلاف على ابن مسعود وهنا مالك وأصحابه
يقولون بالأصل ويدعون الفرع ويقولون بالفرع ويدعون الأصل
وإن كان من جلالة فقهه أجرؤه على هذا الكتاب أن أسلوب الشافعي في هذا الكتاب فيه
قوة، وإنما أن نقول أن تقصد بهذه القوة كلام مالك الذي كالعواقب
وإنما أن يريد به مالك ولكن حجة أن يتبع أتباعه من أتباع مالك ممن ليس
عندهم فقه إلا شعوره أو تقليده.

ويقال كتاب الأم: إن الشافعي رحمه الله تعالى قد صنف كتباً من هذه
الكتب فأول أمره لما كان في مكة أدرك من العراق ثم رأى منها ما كان

يصلح للقارئ ما يدله على ما كان عليه ورأى فيهما ما خرج به رأيه أو ما طلبه تخريجه ما خرج به رأيه وأسبابه؟ القول في مثل الكتاب من جديد، ولذلك صار له قول قديم وقول جديد، الذي صار إلينا الجديد أما القديم فلم يصلنا منه شيء وإنما وصلت لنا بعض أقوال متفرقة في بعض الكتب

ومما يلاحظ في منهج الشافعي رحمه الله تعالى أنه يبدأ القول في كل باب بذكر الآيات والأحاديث الصحيحة والآثار وهذا الإسناد بخرجه.

ثم إن من منهجه في كتاب الأم أنه يعتني بالمسائل على ما لم يطلع عليه أهل العلم الذين اطلعوا عليه فكتاب الأم يمثل أعظم المصادر للمسائل التي لم يختلف أهل العلم فيها وإن قد يكون له طريقة لحكايته وذلك يحاشى من تسميته ذلك إجماعاً وإن كان يحتج به لكنه يطلق لفظ الإجماع على ما كان من علم العامة. بعد ذلك قد يستأنس بالأحاديث الضعيفة وقد يأتي بأقوال التابعين الموافقة لقوله

ويبين الإمام مسلم وقال أن الشافعي أن مذهبه ترك الاحتجاج بالتابعين تقليداً، وإنه يصف ما يحتج به في الضعيف وأنه يستأنس به ويتقوى بأقوال التابعين ليطلع الناظر على أن قوله لم ينفرد به.

ومن طريقته رحمه الله أنه لا يذكر اسم المخالف في المسائل يسمي بعض الناس والمخالفين يسميه أصحابنا ومن شيوخه لا يسميهم، ومنهجه تبيين أقوالهم لا رواياتهم، ذكر مسلم بن خالد في ثلاث أو أربعة مواضع ومالك عن يحيى بن حاتم الصدائع أما الرواية عنه فكثيرة.